النوع الاجتماعي (الجندر) والصحة الإنجابية من منظور إسلامي

الدكتور حمدي مراد
خبير / باحث ومفكر إسلامي
أستاذ في جامعة البلقاء التطبيقية / كلية أصول الدين

أولا: النوع الاجتماعي – الجندر

لعلنا نبدأ بطرح أسئلة مهمة يفتح أمامنا حقيقة البشرية ومسيرة الإنسانية وبدأ الخليقة وطبيعة الكون والحياة ومنطلق الأسرار ... نعم / من خلقنا؟ ومن أين أتينا؟ ولماذا خلقنا؟ والى أين مصيرنا؟

ولعل الأجوبة بحاجة الى فلسفة شاملة في الطرح ومنهجية تفصيلية وحوار مستفيض ... لكنني أضع هنا في اختصار غير مخل... وتوضيح غير ممل... الجواب عن تلك الأسئلة باعتبارنا جميعا نملك رصيدا لا بأس به من خلال خلفيتنا الإيمانية.

أما من خلقنا؟ فهو الخالق الفرد الصمد الواحد الأحد سبحانه هو وتعالى... إنه الرب العظيم المتفرد بكل أسمائه وصفاته سبحانه (ليس كمثله شيء). إنه الله عز وجل، الذي خلق كل شيء بأمره وكل شيء خلقه بقدر، خلق السموات والأرض ومن فيهن وما فيهن، (بديع السموات والأرض) ثم خلق الملائكة، ثم خلق عالم الجن ثم خلق خير مخلوقاته بلا منازع / إنه الإنسان الذي خلقه فأحسن خلقه (في أحسن تقويم) وفضله على العالمين، بالخلق والعقل والوحي.

خلق الله آدم عليه السلام وزوجه حواء وأمر ملائكته ليسجدوا له فسجدوا جميعا طائعين وأمر زعيم وملك الجن إبليس فأبى واستكبر وعصى فاستحق غضب الله ولعنته إلى يوم الدين، ثم أراده الله امتحانا لقلوب العباد وسلوكهم، فمن أطاعه عصى الله سبحانه، ومن عصاه (إبليس – الشيطان) فقد أطاع الله، لكنه مقهور مهزوم أمام المؤمنين الذين عصموا قلوبهم وجوارحهم وأرواحهم بالتقوى وصفات الصالحين والصادقين والموقنين، وهو منصور مطاع مستجاب بين يدي الضائعين في هذه الحياة بلا استقامة ولا إيمان.

ثم أدخل الله أبا البشرية آدم وأمها حواء بيت الزوجية الأول، إنه الجنة، التي أرادها الله عنوانا لسعادة هذا الإنسان في ظلال خالقه سبحانه، وفي كنف مبدعه عز وجل، لقد حذره من إبليس –الشيطان لكنه أخطأ، وشاءت الإرادة الإلهية أن يهبط الله (الزوجين) من عش الزوجية الأول، الدائم إلى عش الزوجية الثاني، المؤقت، إنه الدنيا، هذه الأرض التي نعيش عليها جميعا اليوم نحن أبناء وبنات آدم، إنها إجابة السؤال الثاني من أين أتينا؟ نعم خلق الله آدم وحواء ومنهما البشرية جمعاء، لعبادته، (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ومعنى العبادة هنا اتباع منهج الخالق سبحانه كاملا في كل مجالات الحياة، اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وتعليميا وصحيا وإنسانيا، في العبادات والمعاملات والأخلاق والدعوة والإرشاد، في كل زمان ومكان.

نعم، جعل الله هذه الحياة الدنيا، ميدانا، للامتحان الإنساني، (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم احسن عملا) لهذا خلقنا. ولكن الحقيقة الأخرى المتصلة في هذه الدائرة المتواصلة الإلهية أن هذه الحياة المؤقتة إنما هي جسر للعودة مرة أخرى إلى حيث بدأت المسيرة البشرية مع أبوينا: إلى الجنة، إلى البيت الأول الدائم الخالد، بيت السعادة التي لا تنتهي أبدا، بيت المقام الدائم الذي لا يعرف التوقف، هكذا أراد الله لنا هذه المسيرة البشرية:

البداية هي الجنة ... والمسيرة المؤقتة هي الدنيا ... والخلود في الجنة

والذي نود تأكيده أن الله عز وجل ساوى بين آدم وحواء في الحقوق والواجبات، وجعل بعض الفوارق (الخلقية) والتكليفية هي من أجل التكامل وليس التفاضل على الإطلاق ذلك لأن مفهوم التساوي الإلهي للذكر والأنثى في بني الإنسان يحمل في بعضه تساوي الشكل والمضمون، وفي البعض الآخر تساوي المضمون دون الشكل، وفي البعض الثالث الظن بعدم التساوي في الشكل والمضمون، ولكن الحقيقة بالتأمل العميق، والتفكير السليم، والتحليل الدقيق يتأكد لنا بما لا يدع مجالا للشك أن الله عادل مطلق في عدله حيث ساوى بين الذكر والأنثى تساوي الفردية من جهة وتساوي التكامل معا من جهة أخرى، وبهذا

تتحقق العدالة الإلهية باعتبارهما (الذكر، والأنثى)، وحدة واحدة متكاملة متوازنة – لأن الله تعالى خلقهما معا (من نفس واحدة) كما جاء في الآية.

من هنا فان الفصل بينهما وفصل وحدتهما وكينونتهما – الواحدة – وحكمة وأسرار هذه الوحدة هي التي تقود البعض الى أوهام عدم التساوي وعدم العدل فينظرون الى التكامل بينهما في الحقوق أو الواجبات أنه نقص في أحدهما. ومن هنا نشأت هذه الجدليات السلبية في المنظور الخاطئ أن الله سبحانه لم يساوي بين (الذكر والأنثى) ولم يعلموا عدل الله المطلق بتساويهما من خلال منظور الوحدة الواحدة والتكامل الواحد بينهما. هذه هي الحقيقة (تكامل لا تفاضل) وهذه هي حكمة الله عز وجل، وهذه هي قدرته الدالة على الإبداع في كل شيء، ذلك لأن التساوي بين النوعين بشكل مطلق هو نقص وسلبية وتنافر، وأن التكامل بين نوعين هو الانسجام والتلاحم وهو الإيجابي المطلق، إنها أخطر مسألة في فهم هذه الحقيقة التي تاه فيها حتى كثير من الباحثين والمفكرين حينما انحرفت (بوصلة) التفكير عندهم إلى إعطاء اختلاف بعض الشكل والمهام على أنها عدم تساوي أي إنها ظلم ونقص وقع على أحد الجنسين أو النوعين، ولم يدركوا حكمة الله في النفس الواحدة وتكاملها (الذكر والأنثى) بأنها مطلقة العدل والتساوي للنوع الإنساني (الذكر والأنثى).

وأما الذين يعيشون التفكير المادي المطلق بعيدا عن الخالق سبحانه وتعالى وأسرار خلقه ونظام الكون والحياة والإنسان عنده ومن منظوره سبحانه، فإنهم من الصعب أن يدركوا كنه وجوهر الكون والإنسان والحياة، بعيدا عن ناقوس المبدع جل وعلا، الذي قام على العدل المطلق المتكامل المتوازن.

لقد شاركت المرأة الرجل في النهوض والبناء للمجتمع الإسلامي بشكل واسع ومباشر وفي كل مجالات الحياة –بتفاوت تكاملي– يتناسب مع فطرتها في كل الميادين وأثبتت وجودها من خلال هذا العطاء الإسلامي العادل لها للمساهمة والفعالية والمشاركة والوجود في كل مناحي المجتمع.

فرسول الله صلى الله عليه وسلم أول من لجأ في دعوته واستشار فيها زوجته خديجة رضي الله عنها. لقد كان ذلك في رسالة السماء والوحي وما يعني ويخص البشرية جمعاء

في أخطر مراحلها وهي مرحلة الانطلاقة. إنه المنعطف الأهم والأصعب في مسار التحول البشري، نعم لقد أسمعها وسمع منها، واطمئن لنصائحها وفهمها ورأيها.

ويوم صلح الحديبية كذلك اخذ برأي زوجته في موقف وتشريع خطير حيث أمر الصحابة رضي الله عنهم بقص الشعر والنحر فابطئوا فغضب وأحزنه ذلك فأشارت عليه ان يخرج فيقص وينحر أمامهم وفعل وفعلوا مثله وانتهت الأزمة في لحظات واستمرت المسيرة.

ويوم الوثيقة التاريخية الخاتمة في خطبة حجة الوداع على جبل عرفات وقف يقول ويذكر ويأمر ويوجه نحو أهم بنود دستور وقانون هذه الأمة إلى قيام الساعة (استوصوا بهن خيرا) (النساء شقائق الرجال) ... هكذا وضع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المرأة في مكانة راقية أمام الرجل، إنها ليست شريكة من أجل مصلحة أو مصالح محددة مشتركة بينهما في زمان ما ومكان ما، لا بل هي شقيقه له، أي أن لها كل الحقوق التي تسمو فوق المصالح المؤقتة أو المواقف العابرة. إنما هي حياة واحدة المنطلق والمسار والغاية، وهكذا يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم مقياس أخلاق الرجال تبعا لأسلوب تعاملهم مع النساء. (ما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم)، أي وصف لأعظم من هذا حسنا لأولئك الرجال الذين استحقوا شهادة حسن السيرة والخلق بإحسانهم للإناث والنساء/ وأي وصف أعظم من هذا قبحا لأولئك الرجال الذين استحقوا شهادة سوء السيرة والخلق باقترافهم أي لون أو نوع من الإساءة لهن مهما بلغت ومهما قلت ودنت.

ومن هنا فصل الفقهاء حقوق المرأة وواجباتها ومكانتها في الإسلام والتي شملت كل مناحي وميادين المجتمع الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية والسياسية والعسكرية ومجالس التعليم والتشريع والقضاء والصحة والتربية والدعوة، أي شاملة جميع السلطات الثلاثة.

واسمحوا لي أن أضع وباختصار غير مخل مجموعة من حقوق المرأة بعد أن أوضح لنا أن واجباتها كانت تكمن أصلا في أنها راعية البيت وربته ورعايتها فيه تشمل الزوج والأولاد وأمور البيت، ولكنها تمتد تبعا لظروف الحياة المشتركة إلى التجارة والصناعة والزراعة والسياسة ووظائف الدول والانتخاب ناخبة ومنتخبة ... إلخ.

أقول بعد تلك اللمحات الواضحة هذه مجموعة من حقوق المرأة ومساواتها بالرجل لا بد من التعرض لها لمزيد من الفصل في هذه الحقوق ووضوحها.

أولا: إن مصدر الخلق للرجل والمرأة واحد وهو من طين نفخ الله فيه من روحه فصار نفسا واحدة شكلت مزيج آدم وحواء معا ثم فصل الله تعالى آدم عن حواء على التساوي من ذلك الخلق الواحد. (والنفس الواحدة) (الذي خلقكم من نفس واحدة).

ثانيا: التساوي في العقل والقلب ودليل ذلك تساوي التكاليف والعقوبات الدنيوية والأخروية والجزاءات كذلك.

ثالثا: التساوي في الحقوق بدليل ذلك التساوي في تلك التكاليف والعقوبات.

رابعا: التساوي في الأهلية والتي مناطها تساوي العقل والقلب والتكليفات والعقوبات.

خامسا: تكامل التساوي بينهما في الواجبات حيث أن محصلة واجباتهما معا تعطي كمال الواجبات المطلوبة منهما معا لحياة فطرية طبيعية سعيدة كاملة.

سادسا: التساوي في حقوق الملكية والتملك.

سابعا: التساوي في حقوق العمل.

ثامنا: التساوي في حقوق الرأي والإعلان عنه.

تاسعا: التساوي في حقوق التعليم

عاشرا: التساوي في حق الزوجية بدءا من الخطبة مرورا بحق النكاح واستمرارا في الحياة الزوجية.

حادي عشر: التساوي في حق المعاشرة –ومتعة الفراش– على حد سواء دون أدنى أنانية أو استعلاء أو تسلطية أو تفاضلية من خلال الأخلاق الإسلامية والأداب التربوية التي تضمنت هذا المنهج الاجتماعي الراقي الرائع (لا ضرر ولا ضرار). والهدي السامي (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) والتوجيه النبوي الشريف (حتى تذوق عسيلتها وتذوق عسيلتك) والآية (وجعل بينكما مودة ورحمة) (هن سكن لكم وأنتم سكن لهن) (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) . . . إلخ. أهناك أسمى عدالة وإنصافا وتساويا لا يسمح بإيجاد أدنى خلل في معادلة –النفس الواحدة– في منظومة العدل الإلهي.

أما حق الميراث فقد قرره الله تعالى على أوجه تتكامل مع بعضها وحالاتها المختلفة بين الذكر والأنثى لتكون في محصلتها وشمولها تحمل رسالة العدل والتساوي بكل معانيه تبعا

للمصالح الاجتماعية من كل جوانبها لعلم الله تعالى المطلق. وهذه أمثلة محددة على ذلك، ومثلها كثير جدا.

وحتى نزيل اللبس الذي ساد حتى بين المتفقين وكأن الميراث لا يقوم إلا على مسألة واحدة وصورة واحدة وهي أن (للذكر مثل حظ الأنثيين) وحينما نعرض المختلفة والمتعددة يتبين لنا أن هذه الصورة المذكورة قبل قليل هي واحدة من أربع صور تخالفها تبعا للحالة والمسألة، ولتوضيح ذلك أقول أن مسائل وحالات الميراث (الفرائض) على وجوه أربعة هي:

الأول: نصيب الذكر أكبر من نصيب الأنثى وأشهره ما أوردناه أعلاه أن للذكر ضعف الأنثى. ومثال ذلك أن يترك المتوفى ذكورا وإناثا هم أولاده فتكون القسمة حصتين لكل ذكر.

الثاني: نصيب الأنثى يتساوى مع نصيب الذكر ومثال ذلك أن يترك المتوفى جده وابنته أو والده وابنته، ففي الحالتين يكون نصيب أبيه نصف التركة ونصيب البنت النصف والتركة أيضا فعلى التساوي، ومثال ذلك أيضا أن تترك المرأة المتوفاة زوجا وأختا شقيقة أو أختا لأب، ففي الحالتين يكون للزوج نصف التركة، وللأخت أكانت شقيقة أو لأب لهم نصف التركة أيضا على التساوي.

الثالث: نصيب الأنثى أكبر من نصيب الذكر، مثال ذلك: أن تترك المرأة المتوفاه بنتا لها وزوجها فيكون نصيب ابنتها ثلاثة أرباع التركة، ويكون نصيب زوجها ربع التركة فقط. ومثال ذلك أيضا أن يترك المتوفى أخا لأم وأختا شقيقه فيكون لأخته الشقيقة ثلاثة أرباع التركة ويكون نصيب أخيه لأمه ربع التركة فقط. ومثال ثالث أن يترك المتوفى أباه وأمه وابنته، فيكون نصيب ابنته نصف التركة ويكون نصيب أبيه ثلث التركة، ويكون نصيب أمه الباقي.

الرابع: أن تحجب الأنثى الذكر تماما وتمنعه من الميراث وهي التي ترث، مثال ذلك أن يترك المتوفى بنتا وأختا شقيقه وأخا لأب فتكون حصة البنت نصف التركة ونصيب الأخت النصف الآخر ويحجب أو يحرم الأخ من التركة، ومثال آخر أن يترك المتوفى عما شقيقا لأبيه وأختا شقيقة وبنتا فتكون حصة العم الشقيق لا شيء فقد

حجب وحرم بها وتكون حصة البنت نصف التركة وتكون حصة الأخت النصف الآخر.

ثانيا: الصحة الإنجابية

إنها مصطلح متعدد المعاني والمدلولات، لكنه من المتفق عليه أن الصحة الإنجابية باتت مرهونة بواقع الأسرة بشكل عام، وواقع الزوجة بشكل خاص لأنها آلية الإنجاب الرئيسة في المقدمات وخلال الحمل، وبعد الحمل، إنها مصدر رئيس لعملية الإنجاب وما يتبعها، وما يتقدمها، وأثناءها. إنها موضوع شامل الأركان، واسع التفاصيل، متشابك العلاقات، لكن الله سبحانه وتعالى وجهنا لكل هذا وذلك في إطار متوازن مسؤول.

لقد حثنا الله عز وجل على أن نختار (ذكورا وإناثا) من نحب، ومن يكون في مستوى هذه الحياة المؤقتة فيكون شريكا وأخا للأخر (ذكرا أو أنثى) على التساوي من أجل السعادتين –سعادة الدنيا المؤقتة– وسعادة الآخرة المطلقة، فوجهنا صلى الله عليه وسلم الى أن تختار الفتاة صاحب الخلق والدين (ترضون دينه وخلقة) لأنه وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه إن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها، نعم أن تختاره هي، لا أن تجبر عليه على الإطلاق مهما كانت الأسباب والمصوغات، فان المسألة تبقى تحت حوار الأهل لا إجبار الأهل وتحت توجيههم لا قهرهم، ولابد أخيرا أن تكون الفتاة هي صاحبة الاختيار، لأنها حياتها.

كذلك وجه صلى الله عليه وسلم الشباب لأن يختاروا الفتاه صاحبة الدين لأنها حينئذ ستنسجم معه في مسيرة الحياة وستكون السعادة واحدة ومشتركة في الدنيا، ولها أهدافها المشتركة الواحدة في الآخرة الخلود والدوام، وأنها سوف تحفظه في دينها وبيتها وأولادها وعرضها كما هو واجبه كذلك، وبغير ذلك ستكون الحياة بينهما متضاربة، متصارعة، متناقضة، أي فاشلة لا سعادة فيها ولا انسجام ولا محبة ولا وئام ولا تفاهم أو سلام إنها شقاء ما بعده شقاء.

شرع الله الحياة الزوجية الكريمة التي تقوم على طهر الأخلاق والسلوك والاستقامة فهذا يشكل عنوانا رئيسا ومضمونا خطيرا مهما في حياة الأسرة والزوجين والأولاد، وإن ما

أصاب المجتمعات الغربية من أمراض خطيرة فتاكة مثل -الإيدز- وغيرها من الأمراض إنما نبعت من هذا الفساد السلوكي الذي حرمه الله تعالى -جنسيا-، وقد أثر تأثيرا خطيرا على الإنجاب والصحة الإنجابية هذا بالإضافة الى عذاب الآخرة لمن ارتكبوا ما حرم الله سبحانه.

كذلك فإن الله تعالى عز وجل بما أوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم قد أعطانا فرصة التنظيم في النسل حفاظا على صحة الأم من جهة وحفاظا على رسالة التربية تجاه الأبناء، ذلك لأن تزاحمهم لا يعطي فرصة للوالدين للإحسان إليهما تربية وتوجيها كذلك فإن كثرتهم تعيق تركيز الاهتمام بصحتهم وتعليمهم. وكذلك تؤخر وتنقص من صحتهم النفسية وهذا يتعارض مع حمل الرسالة وأداء الأمانة من الوالدين لأبنائهم.

ومن التوجيهات الواجبة شرعا على الأزواج تجاه زوجاتهم بعامة في مجمل الحياة وبخاصة أثناء الحمل الإحسان لهن حتى تكون نفس الزوجة مطمئنة ومرتاحة هانئة بلا نكد ولا كدر ولا تنغيص لأن كل ذلك ينعكس على نفسية الجنين -فنرتكب بذلك محظورين شرعيين: تجاه الزوجة وتجاه الإبن في آن واحد، أي نقع في ظلمين، أي في محرمين.

كذلك يجب شرعا رعاية الزوجة صحيا بعامة، وبخاصة أثناء الحمل بزيارة الطبيبة أو الطبيب في حال عدم وجود الطبيبة لمتابعة صحتها من جهة وصحة طفلها من جهة أخرى.

ثم من جهة أخرى ينبغي التنبه لتغذيتها بشكل خاص ومتميز حسب التوجهات الطبية أثناء الحمل خشية أن ينعكس أي نقص صحي عندها على طفلنا البريء فنقع كذلك في محظورين شرعيين.

ولابد من استمرار العناية بالزوجة الوالدة، شرعا بعد الولادة حتى تستمر عملية التوازن الصحي لها وللمولود الذي هو في أمس الحاجة لوالدته وحنانها وحليبها. ولا يتكامل ذلك إلا باستمرار الاهتمام بها وبالمولود وصحته ومتابعة تطعيماته والعناية بجوه الطفولي. فكل ذلك واجب شرعا وجزء من المسؤولية الشرعية على الوالدين كل حسب اختصاصه ومسؤولياته.

ولا يجوز شرعا تعاطي أي شيء يضر بالطفل أو بالزوجة واقعا مباشرا أو بيئة وجوا ومحيطا، أو من الزوجة كذلك أثناء الحمل وبعده مثل شرب الخمور وأمثاله المحرمة أصلا شرعا، فكيف حينما ينعكس ضررها على الغير وبخاصة على أطفالنا. أو مثل التدخين، الذي أثبتت الإحصاءات أن 17% من وفيات الأطفال في سن الأشهر الأولى إنما هو بسبب استنشاقهم الدخان من الأبوين أو أحدهما أو من الزوار والأصدقاء والأقارب. وحتى أدوية الأم التي تؤثر على الطفل أثناء الحمل أو بعد الولادة لا يجوز شرعا تناولها ولابد من تناول بديل عنها.